الراوية الشفوية وأهميتها فى حفظ التاريخ

د. صلاح الدين عاوور(*)

تعريف التاريخ الشفوى :

التاريخ الشفوى هو التاريخ الذى يستمد من معلومات مروية بعناية ومنهجية ، رواها باحث متمرس فى لعرض صورة من صور الماضى البعيد أو القريب .

وهكذا يكون التاريخ الشفوى هو التاريخ الحى الذى تناقله الأشخاص ، وعاش فى ذاكرتهم . فهو صوت المعاصرين الحى الذى يفند المفاهيم القديمة المغلوطة والمبالغات التى ربما تطرقت إلى الصفحات المدونة فى سجلات الواقع التاريخى .

وللتاريخ الشفوى منهج يتصف بالديموقراطية لأنه يعتمد فى روايته للحدث على الخاصة والعامة ، على الحاكم والمحكوم ، ويعكس بعمق قوة عواطف الشخص ، والأبعاد الإنسانية للشعب والمجتمع ، فهو لا يهمل تجارب عامة الناس، وإنما يهتم بقضاياهم وأحوالهم ، ويشركهم فى تدوين تاريخهم كذلك يعنى هذا المنهج . بدراسة الماضى ، من خلال الكلمة المحكية المحفوظة فى الذاكرة ، والمنقولة مشافهة . ومعنى ذلك أنه يشتمل على :

التراث الشفوى : أى دراسة الماضى البعيد من خلال الروايات الشفهية الشائعة فى مجتمع معين والمنقولة عبر عدة أجيال ، أو عن جيل واحد على الأقل .

(*) أستاذ مشارك فى فرع التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب – الجامعة الإسلامية – غزة .

وتاريخ العصر : أى دراسة الماضى القريب من خلال روايات الأفراد وذكرياتهم عن أحداث حياتهم ، وخبراتهم ومشاهداتهم ، خاصة تلك الأحداث التى شاركوا فى صنعها شخصيًا أو كانوا شهود عيان لها(١) .

إن شفاهية الثقافة التى لم تمسها مطلقًا أية معرفة بالكتابة أو الطباعة أو التسجيل الآلى ، « شفاهية أولية » . وهى أولية بالتقابل مع «الشفاهية المتطورة» التى تتميز بها الثقافات ذات التكنولوجيا العالية فى الوقت الحاضر، حيث تُحافظ شفاهية جديدة على وجودها واستمرارها فى وظيفتها من خلال المسجل والفيديو والتلفاز والوسائل الإلكترونية الأخرى التى يعتمد وجودها وأداؤها لوظيفتها على الكتابة والطباعة .

أما الثقافة الأولية الشفوية بالمعنى الدقيق فتكاد تنعدم اليوم ؛ ذلك أن ثقافات اليوم تعتمد على الكتابة ، ولديها شئ كثير من الخبرة بتأثيراتها ، ومع ذلك فإن كثيرًا من الثقافات الثانوية لا تزال تحتفظ بدرجات متفاوتة بالطابع العام الذى تتصف به الشفاهية الأولية(٢) .

والتاريخ الشفوى يتطلب من الباحث مهارة جيدة فى الإفادة من العلاقات الإنسانية ، كما يتطلب من الراوى اهتمامًا ثابتًا ودائمًا بالموضوع(٣) .

إن الكثير من المصادر المدونة التى يستشهد بها المؤرخون اليوم كانت فى الأصل مصادرشفهية .

وعلى هذا الأساس فإن الوثائق المدونة ليست أكثر أهمية للتاريخ من الروايات الشفهية .

إن التاريخ الشفهى يُقدم لنا معنى للمكان والمجتمع كما كان متاحًا للناس ، وفى الوقت ذاته يُلقى ضوءًا على السِّمات الواسعة للتاريخ - خاصة التاريخ الاجتماعى - .

وتتضمن الممارسة الحالية للتاريخ الشفهى افتراضين فيهما الكثير من الجاذبية هما :

الأول : وهو الأكثر وضوحًا - يقول أن الذكريات الشخصية يُنظر إليها على أنها وسيلة فعالة لبعث الماضى - أى شهادة جديرة بالثقة فى الحياة البشرية كما كانت تسير فعلا بصفة واقعية .

فالتاريخ الشفهى يُقدم ببساطة وسائل جديدة لتحقيق وتوضيح ما كانت عليه الأشياء فعلاً ، ويعتمد على تجارب الناس فى الماضى وإلى أقصى درجة ممكنة .

ثانيًا : هناك الكثير من المؤرخين الشفهيين يرفضون أن يكونوا تحت راية المؤرخين المحترفين . وهم ينظرون إلى التاريخ الشفهى كخيار ديموقراطى يتحدى احتكار النخبة الأكاديمية ، ويرون أنه فى ظل التاريخ الشفوى يكون لعامة الناس دور فى التاريخ ، بل أيضًا دور فى إنتاج المعرفة التاريخية مع مضامين سياسية مهمة(٤) .

وهكذا فإن التاريخ الشفوى يُتيح الفرصة للراغبين من كافة الفئات للمشاركة فى تسجيل التاريخ ، بشرط أن يكون ذلك تحت إشراف مختصين فى أهل العلم والدراية ، حيث أن التاريخ الشفوى يتم الوقوف عليه وتسجيله عن طريق المقابلات الشفهية ، ومن ثم فإنه يتطلب منهجاً خاصاً يُدركه ويُطبقه المختصون فى هذا المجال .

تاريخ الراوية الشفوية :

يرتبط الكلام بالوعى ، بمعنى إن الكلام غير منفصل عن وعينا . وقد أسر الكلام لُبَّ البشر ، ودفعهم إلى التأمل الجاد فيه منذ المراحل المبكرة جدًا من الوعى، قبل أن تظهر الكتابة بزمن طويل . تاريخ الشعوب فى كل أنحاء العالم

غنى بالملاحظات حول هذه الظاهرة الإنسانية المدهشة ، ظاهرة اللغة ، فى صورتها الشفاهية الأصلية ، والتعبير عن الأحاسيس والرغبات بحركات الفم واللسان .

وقد استمر الاعتماد على الكلام الشفاهى دون فتور أو كلل لقرون طويلة حتى بعد أن شاع استخدام الكتابة . وبعبارة أخرى فإن المؤرخين الأوائل اعتمدوا بشكل أساسى على الروايات الشفوية التى تتناقلها الألسن .

من ذلك أن السومريين اعتمدوا على التواتر أى نقل الروايات من جيل إلى آخر مشافهة ، حتى غدت هذه الأحداث مقبولة ومعتمدة مثل ملحمة جلجامش.

أما هوميروس شاعر اليونان العظيم من القرن العاشر قبل الميلاد فقد جمع التراث الشفوى للإغريق ونظّمه فى ملاحم أصبحت تنسب إليه وأشهرها الإلياذة ، والأوديسة .

أما المؤرخ اليونانى هيرودوتس « أبو التاريخ » فقد اعتمد على الروايات الشفوية بالإضافة إلى مشاهداته ، وكتب تاريخًا عالميًا .

كذلك نحا المؤرخ اليونانى توسيديدس فى كتابته للتاريخ على نهج أستاذه هيرودوتس فكتب تاريخًا للحرب البلبونيزية التى عاصرها معتمدًا على مشاهداته وروايات شهود العيان من الجنود وغيرهم .

واشتهر هيرودوتس وتوسيديدس بمقارناتهما المصادر المكتوبة بالتاريخ الشفوى .

وعلى نهج هؤلاء سار المؤرخون الرومان .

إما الفردوسى « الفارسى » فقد دوّن الملاحم البطولية لبلاده بشكلها النهائى باللغة الفارسية ، وذلك فى القرن الحادى عشر ، وهى التى عُرفت بالشاهنامة « بطولة الملوك » معتمدًا فى ذلك على التقاليد المروية ، والتاريخ الشفوى .

وهكذا كان للتاريخ الشفوى مصداقيـة واعتبـار كمصـدر للتـأريخ ، وكان دائمًا يُقارن بما هو مكتوب ، وترجح كفته حين الاختلاف بينه وبين ما هو مكتوب .

ولكن حدث منذ القرن السـادس عشـر فصـاعدًا أن أخـذ الإحسـاس بالعلاقات المعقدة بين الكتابة والكلام يزداد . غير أن سـيطرة النصيّـة علـى عقول الباحثين سيطرة محكمة تجعلنا دائماً فى حاجة إلى الرجوع إلى الرواية الشفوية .

ولمـا كـانت النقلـة مـن الكـلام الشـفاهى إلى الكـلام المكتـوب فـى جوهرها نقلة من الصوت إلى الفراغ المرئى . فإن تأثيرات الطباعة هنا علـى استخدام الفراغ المرئى يمكن أن تكون بؤرة الاهتمام المركزية ، وإن لم تكن الوحيدة ، ولا تُبرز هذه البؤرة العلاقة بـين الطباعـة والكتابـة فحسـب بـل تبرز علاقة الطباعة بالشفاهية التى لا تزال باقية فـى الكتابـة ، وفـى ثقافـة الطباعة المبكرة .

وبعبارة أخرى فإن الكتابة أعادت تشكيل الكلمة المنطوقة ، شـفاهية الأصل فوضعتها فى الفراغ المرئى . أما الطباعة فقـد رسـخت الكلمـة فـى هذا الفراغ على نحو أكثر حسمًا .

فالطباعة تُشجع على الإحساس بالاكتمال ، وهو الإحساس بأن ما هو قائم فى نص ما قد استوفى الغاية ؛ ووصل إلى حالة الكمـال ، وهـذا الإحسـاس يؤثـر على الإبداعات الأدبية ، كما يؤثر على العمل التحليلى التاريخى .

الرواية الشفوية عند المسلمين :

لعبت الرواية الشفوية فى التاريخ العربى والإسلامى دورًا مميزًا ، حيث نشـأ علم التاريخ على هامش العلـوم الشـرعية وفـى مقدمتهـا علـم الحديـث ، واعتمـد المؤرخون المسلمون نفس مناهج علماء الحديث ، وهى الإسناد والجـرح والتعديـل

لمعالجة الروايات الشفوية . ومن هنا نقـول أن منهـج التـاريخ الشـفوى هـو منهـج أصيل عند المسلمين .

كان العرب يتناقلون التاريخ مشافهة من جيل إلى جيل ، فأحاديث الحروب بـين القبـائل المختلفـة التـى سُـميت بأيـام العـرب ، والأنسـاب ، والتفـاخر بهـا ، وقصـص الكـرم وسـيرة الملـوك ، وغـير ذلـك مـن الأمـور ، والتـى كـانت تتسـم بالغموض والخيال وعدم الدقة ، كانت نواة لنشأة علـم التـاريخ ، حيـث أن كثـيرًا من المؤرخين المسلمين استمدوا منها أخبارهم ودونوها .

وقد بدأ تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير فى العصر الأموى (٥) إذ كان معاوية بن أبى سفيان يستمع كل ليلة إلى شئ من أخبار العـرب وأيـامهم وأخبار العجم وملوكهم ، وكان يأتيه من يقرأ له من الكتب عن هذه الأخبـار والسيّر(٦) .

وكان للدين الإسـلامى أثـر كبـير فـى الاهتمـام بعلـم التـاريخ عنـد العـرب وتطوره ، لا سيما وأن القرآن الكريم أورد شيئًا مـن أخبـار العـرب قبـل الإسـلام منها ما يتعلق بقبائل عاد وثمود وملوك اليمن وقصص الأنبياء .

كذلك للرسول ﷺ كتّاب يكتبون ما ينزل به الوحى عليه من القـرآن علـى جريد النخل والحجارة والجلد والعظم ... إلخ ، وقد جُمـع القـرآن فـى عهـد أبـى بكر الصديق باقتراح من عمر بن الخطاب الذى خشى أن يضيـع شـئ مـن القـرآن بعد استشهاد عدد كبير من حفظة القرآن فى حروب الردة ، فقام بجمعـه زيـد بـن ثابت كاتب الوحى ، وقدمه لأبى بكر الذى خلفه لعمر ثم ظل عنـد ابنتـه حفصـة زوج الرسول ﷺ .

أما الجمع النهائى للقرآن فقد تم فى عهد عثمان بن عفان .

وأما حديث الرسول ﷺ فيتصل اتصالاً وثيقًا بنشـأة التـاريخ عنـد المسـلمين بعد القرآن . فقد روى الصحابة حديث الرسـول ﷺ وتنـاقلوه مشـافهة ، وأخـذه بعد ذلك التابعون الذين سمعوا عن الصحابة .

ولم يقتصر الحديث فى البداية على الحفظ والرواية الشفوية فقد كتبه البعض مثل عبد الله بن عمر وابن العاص .

قال أبو هريرة : « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا اكتب »(٧) .

على أن المسلمين كانوا يروون معظم الأحاديث شفاهًا ، فالتدورين لم يكن كاملاً ، ولم يكن تدوينًا بالمعنى الصحيح ، وقد تحاشاه المسلمون مخافة اختلاطه بالقرآن الكريم ، إلى عصر عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) حيث أمر قاضية على المدينة - أبا بكر محمد بن عمر ابن حزم - أن يكتب ما كان من حديث رسول الله ﷺ وسنته خوفًا من ضياع العلم وذهاب العلماء(٨) .

أما الذين كان لهم شرف صحبة رسو الله ﷺ فقد اشتركوا فى جهاد الكفار وتفرقوا فى البلدان التى فتحها المسلمون وكانوا يعلمون أهلها الدين وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار ، فأهل المدينة المنورة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله ابن عمر - رضى الله عنهما - وأهل الكوفة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وأهل مكة كانوا يتبعون فى الأكثر فتاوى عبد الله بن العباس - رضى الله عنهما - وأهل مصر كانوا يتبعون فىالأكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - وهكذا ...(٩) .

أما الخلفاء العباسيون فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء لتأييد خلافتهم وكان لهذه الرعاية أثرها فى تنشيط حركة جمع الحديث فظهرت صحيفة عبد الله بن لهيعة المصرى (ت ١٧٤) وموطأ الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) وكان هذا تمهيدًا لظهور التدوين المنظم للحديث فى القرن الثالث الهجرى حيث ظهرت مجموعة من أمهات كتب الحديث

أهمها صحيح البخارى (ت ٢٥٦هـ) ، وصحيح مسلم (ت ٢٦١هـ) ، وسنن أبى داود (ت ٢٥٧هـ) ، وسنن الترمذى (ت ٢٧٩هـ) ، والنسائى (ت ٣٠٣هـ) وسنن ابن ماجة (ت ٢٧٣هـ) .

ولاشك فى بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين كانت وثيقة الصلة بالحديث والسنة النبوية الشريفة ، وكان الاعتماد فيه أولاً على الرواية الشفوية ، وذلك أن علم التاريخ عند المسلمين كان يهدف فى البداية إلى دراسة سيرة الرسول ﷺ وأعمال الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - والجماعة الإسلامية الناشئة ، وأخبار الغزوات والجهاد ، وكان الاعتماد فيه أيضًا على الرواية الشفوية قبل كل شئ .

وبهذا ندرك أن طبيعة علم التاريخ عند المسلمين لم تختلف عن طبيعة علم الحديث ، اللهم إلا فى هدف كل منهما ، ونوع الروايات التى يعنى بها ، فالمحدثون يعنون بالروايات التى تهم الفقه (عبادات ، معاملات ، أخلاق ... إلخ) بينما يعنى المؤرخون بالروايات التى تتجه إلى سرد الحوادث . فالحديث دراية ورواية ، والتاريخ عند المسلمين دراية ورواية أيضًا . والعلمان اشتركا فى المصادر والمنهج ، ولكن من المعروف أن المحدثين عنوا بالإسناد عناية كبيرة فظهر عندهم ما يعرف باسم (الجرح والتعديل) أى نقد الرواة .

واستفاد المؤرخون من هذا الأمر فظهرت كتب الطبقات معتمدة على نفس المنهج ، ومنها طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) ، وطبقات الذهبى (٨٤٨هـ) .

أما أقدم الكتب التاريخية التى جمعت بين علمى الحديث والتاريخ فهى كتب المغازى والسير التى بدأت فى المدينة المنورة ثم انتقلت إلى الأمصار فى القرن الثانى للهجرة .

وكانت هذه الكتب تبحث فى سيرة الرسول ﷺ وغزواته وتجمع أخبار هجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأخبار غزوات الرسول ﷺ ، وأهم أحداثها .

ومن أقدم كُتّاب هذا الفرع من التاريخ عروة بن الزبير (ت ٩٢هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ) ، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ) وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (ت ١٣٥هـ) ، وعاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠هـ) ، ووهب بن منبه (١١٠هـ) .

أما محمد بن مسلم الزهرى (ت ١٢٤هـ) الذى كان رائدًا لعلم التاريخ الشفوى ، فقد اشتهر بسعة معارفة وقوة ذاكرته . وكان محبًا لهذا العلم شغوفًا به ، فكان لا يُبقى فى المجلس شابًا ولا كهلاً ولا عجوزًا ولا كهلة إلاّ سألهم . وقد درس فى المدينة وتنقل بين الحجاز ودمشق وغيرها ، دوّن الحديث والأخبار على غير المألوف فى ذلك الوقت ، وكان يقول : (ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشرى ولا بذله بذلى)(١٠) .

كتب الزهرى - معتمدًا على الرواية الشفوية - عن مواضيع كثيرة . وظهر ذلك فى مجموعة الأحاديث المسماة (الزهريات) ، وهى تشمل قوائم المهاجرين إلى الحبشة ، والمشتركين فى بيعة العقبة ، والمقاتلين فى بدر . وقد تناول حياة الرسول ﷺ ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، وتاريخ بنى أمية ، وكان يُدخل الشعر فيما يروى .

وقد أعار الزهرى السند أهمية كبرى حيث عمد إلى جمع أسماء رواة الخبر الواحد ، وتوحيدهم ، ثم رواية الخبر نفسه(١١) .

وبعد الزهرى أصبح المؤرخون يجمعون بين التاريخ المكتوب والتاريخ الشفوى ، فقد كان ما ألفه من كتب أساسًا اعتمده المؤرخون بعده ، ومنهم معمر ابن راشد اليمانى البصرى (ت ١٥٠هـ) الذى ألف كتابًا فى الحديث والمغازى ناقلاً أكثر رواياته عن الزهرى .

أما أشهر تلاميذ الزهرى فهو محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) الذى ألف كتابًا فى السيرة يتكون من ثلاثة أقسام (المبتدأ والمبعث والمغازى) تناول فى القسم الأول تاريخ الخليقة إلىما قبل الإسلام ، والقسم الثانى

حياة الرسول ﷺ فى مكة والهجرة ، والقسم الثالث سيرة الرسول ﷺ فى المدينة ومغازيه .

و لم يصلنا هذا الكتاب مباشرة بل وصلنا برواية ابن هشام فى سيرته المعروفة . وكان ابن هشام قد نقله عن تلميذ ابن إسحاق - البكائى - بعد إجراء بعض التعديلات والحذف(١٢) .

ومن أعظم الذين خلفوا ابن إسحاق فى الكتابة عن المغازى محمد بن الواقدى (ت ٢٠٧هـ) . ومن تلاميذ الواقدى محمد بن سعد صاحب كتاب (الطبقات) . وامتاز ابن سعد بذكر النص الكامل للكثير من الوثائق الأصلية مع الاهتمام بالسند ، ومثل هذا المعجم التاريخى فى تراجم النبى ﷺ والصحابة والتابعين يؤلف حلقة جديدة فى الوصل بين علم الحديث وبين الرواية التاريخية .

إن مؤرخى السيرة والمغازى والفتوحات الإسلامية والطبقات بكتابتهم المعتمدة على الرواية الشفهية مهدوا للمؤرخين الذين كتبوا بعدهم فى التاريخ ، ورسموا لهم منهجًا يسيرون عليه فى التحقيق والكتابة .

و استمر المؤرخون فى العصر العباسى فى المزج بين الرواية المكتوبة والرواية الشفوية . ومن أشهر المؤرخين فى هذا العصر ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) الذى لم يكن مؤرخًا فحسب بل كان عالماً فى النحو واللغة والنقد الأدبى والفقه . ومن مؤلفاته التاريخية كتاب (المعارف) و (الإمامة والسياسة) و (عيون الأخبار) .

واليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) الذى كان مؤرخًا وجغرافيًا صاحب كتاب (البلدان) وكتاب عرف باسمه (تاريخ اليعقوبى) .

وأبو حنيفة الدينورى (ت ٢٨٢هـ) وهو بالإضافة إلى كونه مؤرخًا فقد كان من علماء اللغة والنبات والهندسة والحساب ، وهو صاحب

كتاب (الأخبار الطوال) يتحدث فيه من آدم عليه السلام إلى آخر أيام الخليفة العباسى المعتصم .

أما أشهر المؤرخين المسلمين فهو الطبرى (ت ٣١٠هـ) الذى كان محدثًا وفقهيًا ومفسرًا صاحب كتاب (تاريخ الرسل والملوك) الذى اعتمد عليه المؤرخون من بعده أمثال مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وأبو الفدا ، والذهبى .

بدأ الطبرى كتابه بابتداء الخلق ، واستمر حتى سنة ٣٠٢هـ . ويعتبر كتابه أول كتب التاريخ الشاملة عند المسلمين ، رتبه على السنين الهجرية ، واتبع فيه طريقة الإسناد إلى رواة الحوادث بالتسلسل .

واعتمد الطبرى فى تأليفه هذا الكتاب على الروايات الشفوية التى جمعها عن شيوخه وعن المعاصرين والتابعين لهم ، واستفاد من أسفاره المتعددة إلى مصر والشام والعراق وغيرها ، كما اعتمد على الكتب التى كانت موجوده فى عصره .

أما المسعودى (ت ٣٤٦هـ) فقد ساح فى طلب العلم فطاف أكثر أجزاء العالم الإسلامى وابتكر طريقة جديدة فى تأليف التاريخ ، وهى ترتيب الحوادث تحت رؤوس موضوعات من الشعوب ، والملوك والأسرات . ولم يتبع ترتيب الحوادث تعاقب السنين الهجرية كما فعل الطبرى ، وتبعه فى هذا ابن خلدون وغيره من المؤرخين .

ألّف المسعودى كتاب (مروج الذهب ومعان الجوهر) وهو كتاب تاريخى جغرافى عظيم القيمة ، وكتاب (التنبيه والإشراف) وقد أطلق المؤرخون على المسعودى اسم هيردوت العرب ، وجمع المسعودى بين الرواية المكتوبة والتاريخ الشفوى .

ومن أشهر المؤرخين المسلمين مسكويه (ت ٤٢١هـ) صاحب كتاب (تجارب الأمم) . وقد اعتمد على الطبرى بدرجة كبيرة فى

الحوادث التى لم يدركها ، ثم اعتمد على الروايات الشفوية حيث كانت له علاقة بأكبر الشخصيات فى عصره إذ كان أمينًا لمكتبة ركن الدولة الفضل بن العميد، ثم دخل فى خدمة عضد الدولة بن بويه . ولم يكن مسكويه مؤرخًا فحسب بل كان فيلسوفًا وطبيبًا وسياسيًا محنكًا . فكان قادرًا على جمع المعلومات من مصادرها الصادقة ، وكان موضوعيًا لدرجة كبيرة ، فتعرض فى كتابه لعجز سيف الدولة الحمدانى ولم يخف هزيمته أحيانًا أمام البيزنطيين ، مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطل الإسلام والمجاهد الأكبر فى زمانه ، ولكن مسكويه إلتزم بالحقيقة .

إن اعتماد مسكويه على الرواية الشفوية جعل أحكامه صادقة لا سيما وأنه كان مؤرخًا حاذقًا لا يبغى إلاّ الحقيقة .

ومن المؤرخين القدماء من كتب عن أحداث عصره التى شاهدها بأم عينيه أو فترة قريبة العهد به ، أى سبقته بفترة قصيرة ، فاعتمد على الرواية الشفهية حيث كان المؤرخ يتصل بأعلام المعاصرين وكبار رجال الجيش والإدارة ويسمع منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة . وكان بعض أولئك المؤرخين يشغل منصبًا هاماً فى الدولة (دواوين - إدارة - ولاية - جيش ... إلخ) فكان اعتمادهم عظيمًا على اتصالهم بالرجال والأحداث نفسها .

ولهؤلاء المؤرخين أهمية خاصة فى الكشف عن القيم الأخلاقية فى عصرهم مما يتجلى فى المثل العليا والأهداف عند الأشخاص الذين يصورونهم ، كما أننا نستطيع فى كثير من الأحيان أن نستنبط من مؤلفاتهم بيانات كثيرة عن الحياة اليومية فى عصرهم .

ولكن رغم اعتماد مؤلفاتهم كمصادر أصلية إلا أنه يجب مراعاة قواعد البحث العلمى من حيث نقد المصادر والروايات ... إلخ .

أهمية التاريخ الشفوى :

إن الكلمة المنطوقة وسط كل الآفـاق الرائعـة التـى تتيحهـا الكتابـة ، لا يزال لها حضور وحياة . ذلك أن كل النصوص المكتوبة لابد لها بطريقة ما ، - مباشرة أو غير مباشرة - ، من الارتباط بعالم الصوت ، الموطن الطبيعى للغـة ، كى تعطى معانيها .

وقراءة النص تعنى تحويله إلى صوت ، جهوريًا كان أو فى الخـاطر ، مقطعـا فى القراءة البطيئة ، أو اختزالاً فى القـرآءة السـريعة الشـائعة فـى الثقافـات ، ذات التكنولوجيا العالية(١٣) .

فالكتابة لا يمكن أبدا أن تستغنى عن الشفاهية وجمع الروايات الشـفوية، وتوثيقها عمل هام جدًا فهو يحفظ خبرات وتجارب كانت ستنسـى أو تتحـول فى أحسن الأحوال إلى خرافات ، بفعل تناقلها مشافهة من شخص إلى آخـر ، ومن جيل إلى جيل .

إن فهما أعمق للشفاهية الأصليـة أو الأوليـة يمكننـا مـن فهـم عـالم الكتابـة الجديد فهما أفضل .

يقال أن ذكريات الرواى مهما كانت دقيقة ، ومفعمة بالحيوية ، فإنهـا تمـر بتصفية من خلال التجارب اللاحقة ، وإنها من الجائز أن تتأثر بمـا تم استيعابه مـن المصادر الأخرى « خاصة وسائل الإعلام » .

يضاف إلى ذلك أنها ربما تتأثر بشعور التوق المفرط إلى الماضى . ومن ناحية أخرى يمكن أن تحرف ذكريات الـرواى بشـعور الأسـى ، بخصـوص الحرمـان فـى مرحلة الطفولة(١٤) .

ويقال أن الذاكرة تنتقى ملامـح معينـة للمشـهد أو الحـدث ، وتفسـره فـى ضوء الخبرات السابقة ، والتوقعات . وعند المقابلـة يميـل الـراوى إلى الـتركيز علـى

إحساسه وتكون توقعاته عن الحدث أكثر مما شاهده فعلاً ، ويحكم منطق ما كان يجب أن يحدث .

ولكن هذا ليس مبررًا كافيًا لعدم الاعتراف بالتاريخ الشفوى كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، فلكل المصادر مشكلاتها .

والواقع أن العاطفة والغايات تؤثر فى التاريخ المكتوب ربما أكثر من تأثيرها فى الراوية الشفوية ، والباحث اللبق لا يقبل المصادر على علاتها ، وإنما يتخذ منها دائمًا موقفًا نقديًا ومتشككًا سواء كانت مكتوبة أو غير ذلك .

والجدير بالذكر أنه عندما تختلف الروايات الشفوية مع المصادر المكتوبة فإن الروايات الشفوية تصحح المصادر المكتوبة ، أما العكس فإنه نادر الحدوث(١٥) .

إن إنتاج تاريخ عام ومشترك من الذكريات المنطوقة لأفراد الطبقة العاملة ، أو للمزارعين ... إلخ يعتبر نشاطًا إيجابيًا ومهما بشأن الإندماج فى أشكال أخرى جديدة ومتنوعة من سياسات المجتمع ، فهو يبرز مشاكل وآلام وآمال وطموحات هذه الطبقة من الشعب أو تلك(١٦) .

إن من عوامل أهمية التاريخ الشفوى أنه لا يهمل الأبعاد غير المرئية فى النشاط الإنسانى والبناء المجتمعى ، فالتاريخ ليس فقط الأحداث الكبيرة الضخمة ، الظاهرة للعيان بل تشترك معها الأحداث غير المرئية ، فتشكل المجرى الرئيسى للتاريخ ، فكتابة الحدث تبقى ناقصة إذا لم تتضمن الانفعالات والمشاعر والتفاصيل المصاحبة للحدث .

ففى العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦م على قطاع غزة قامت إسرائيل بارتكاب مجازر رهيبة فى معظم مدن القطاع ، خاصة فى مدينة رفح حيث

جمعت قوات الاحتلال خلال ساعة كل رجال من سن ١٦ سنة إلى سن ٦٠ سنة فى المدرسة الأميرية ،وذلك بعد أن أعلنوا عن هذا الأمر فى الساعة السادسة صباحًا ، وكل من تخلف عن الحضور إلى هذه المدرسة أمر الجنود بقتله ، وكل من لم يسمع النداء وبقى فى بيته قتلوه أيضًا على باب منزله .

أما من ذهب إلى المدرسة فإنه تعرض قبل دخوله للضرب المبرح.

هذا الحدث قد يرد فى كتب التاريخ - علمًا أنه لم يورد حتى الآن- ولكن تبقى معاناة أسر أولئك الشهداء التى تكمن فى الزاوية الغير مرئية ، والتى منها أن امرأة حينما شاهدت ابنها قتيلاً ضربت بكفيها على رجليها فشلت ، وأصبحت مقعدة لا تستطيع حراك رجليها إلى أن ماتت . وهناك أب شاهد ابنه مقتولاً فحملق فيه برهة من الزمن فقد بعدها بصره ، وأصبح ضريرًا إلى أن مات بعد فترة قصيرة .

هذه الأحداث وغيرها كثير لم تسجل ، ويبقى العبء ، بل الواجب على المؤرخين الذين يعتمدون التاريخ الشفوى كمصدر من مصادر التاريخ، إبرازها ، فما زال بعض من عاصر هذا الحدث حيا يرزق .

إن التاريخ الشفوى إذا أحسن استخدامه يشكل مصدرًا لا يقل أهمية أو دقة عن المصادر المكتوبة . ومع أن الروايات الشفوية أقل بقاء فى العادة وأكثر عرضة للتحريف من المصادر المادية والمكتوبة ، إلا أن بعض الوثائق الشفوية كالحكايات والأغانى الشعبية والأشعار تحفظ فى الذاكرة ، وتنتقل من جيل إلى جيل ، دون تغيير تقريبًا ، وتحفظ فى ذاكرة الشعب لفترات طويلة جدًا .

ولكن إعداد الوثائق الشفوية ومعالجتها يختلف عنه فى المصادر المكتوبة ، ولا بد للمشتغل بالتاريخ الشفوى من تدريب مناسب فى النواحى النظرية والعملية قبل الإقدام على عمله هذا .

إن التاريخ الشفوى له مكان واسع فى التاريخ ، ويحتمل أن يصبح أكثر انتشارًا فى المستقبل ، وتحتاج روايات الأحياء لجمع من قبل المؤرخين أكثر من أى وقت مضى ، لأنها تتعرض لوصف عدة متغيرات اجتماعية واقتصادية ، وسياسية ، وثقافية ، وسكانية(١٧) .

منهج البحث فى التاريخ الشفوى :

تنوعت اهتمامات المؤرخين فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية التى يعالجونها فى كتابة التاريخ .

وللتاريخ الشفوى منهجه فى البحث وهو يعالج جميع مجالات الحياة لشعب أو أمة ، بمعنى أنه يشمل :

أولاً : التاريخ السياسى :

وهو يبحث فى القيادات السياسية ، والأحزاب ، والحركات السياسية ، والنقابات ، والثورات ... إلخ .

ثانيًا : التاريخ الاجتماعى :

وهو يبحث فى الحياة الاجتماعية والأسرية والأعياد والاحتفالات، والملابس ، والطعام فى فترة زمنية محددة ، فضلا عن الحياة داخل البيوت وخارجها ، فى الأسواق والحمامات ... وغيرها .

ثالثًا : التاريخ الاقتصادى :

وهو يبحث فى النشاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة ؛ والمحلات التجارية ، والعملات ، والضرائب ... إلخ .

رابعًا : التاريخ الثقافى :

يبحث فى النشاط الفكرى والتعليم ، والمدارس ، والمكاتب وألوان المعرفة والعلوم .

خامسًا : تاريخ السكان :

ويبحث فى عدد السكان وعناصرهم وأصولهم ، ومناطق الانتشار والاستقرار والهجرة ، وتاريخ المدن .

* * *

ونحن إذا أردنا أن نصل إلى الأهمية الكاملة لشهادة شفهية ما ، يجب أن نقابلها بالمقارنة والمقابلة بكل ما جاء عنها فى المصادر ذات العلاقة بموضوع البحث ، وإلا ستكون أغلب التفاصيل غير ذات فائدة .

ويكشف البحث الشفهى أحيانًا مادة وثائقية جديدة فى حيازة الأفراد - صور ، عملات ، سندات ملكية لأراضى وعقارات ... إلخ - وهذه تزيد من كميات الشواهد المساعدة . وغنى عن البيان أن التضلع فى السياق المحلى هو الذى يجعل الشفهى هامًا وملفتًا للنظر .

إن التاريخ الشفهى ليس فرعًا جديدًا من التاريخ ، وإنما منهجية ، ووسيلة لتقديم مصادر جديدة تقف جنبًا إلى جنب مع المصادر المدونة والبقايا المادية .

ولكن فى الوقت ذاته تستحق المصادر الشفهية اهتمامًا أكثر مما تحصل عليه حاليًا من قبل المؤرخين عمومًا . فهى فوق كل شئ مادة شفهية ، تشترك مع المصادر المدونة فى الكثير من جوانب القوة والضعف وغزارة التفاصيل مع فارق دقيق لا يكاد يدرك فى المعنى ، إضافة إلى التحريفات المتعلقة بالتحيز المذهبى والاتجاه السياسى .

إن المصادر الشفهية تعتبر بصفة خاصة مادة ملائمة لمهارات المؤرخ النقدية التقليدية . فهى تحتوى على جاذبية أبعد بخصوص تقديم رؤية متميزة فى تشكيل الوعى التاريخى الشعبى ، وهو أمر يجب أن يكون محل اهتمام دائم لكل المؤرخين(١٨) .

خطوات البحث فى التاريخ الشفوى :

إن منهج البحث فى التاريخ الشفوى يجب أن يلتزم بمنهج علمى غير منهج البحث فى الوثائق المكتوبة ، وأهم أركانه(١٩) :

أولاً : الإعداد للمقابلة :

الإعدد الجيد للمقابلة هو مفتاح النجاح لمؤرخ التاريخ الشفوى حيث توجد أمامه فرصة واحدة لاختبار المصادر وتصحيحها ، أو معالجة الفراغات والنواقص فيها ، ومعظم أشكال البحث الأخرى تحتمل مثل هذه العمليات باستمرار ، ولذلك فإن على المؤرخ الشفوى أن يحسم القضايا التالية قبل التوجه للمقابلة :

١ – إعداد الباحثين الميدانيين :

العمل الميدانى يتطلب مهارات مهنية ، ومواصفات شخصية واجتماعية محددة لا بد من توافرها . وأهم المواصفات المطلوب توافرها فى الباحث فى التاريخ الشفوى :

(أ) معرفته بمناهج البحث التاريخى .

(ب) المقدرة على استخدام أدوات البحث الميدانى .

(جـ) اتصافه بعدة صفات شخصية ، ليس المقصود بها المظهر الخارجى للباحث – وأن كان هذا مهمًا ، إنما الجوهر هو الأهم ، أى يجب أن تكون لديه قدرة على كسب ود ، وثقة المتحدثين معه من خلال اتقانه لملكة الإصغاء ،

وإظهار التعاطف ، أو علـى الأقـل التفهـم لوجهـات نظـر الـرواة وهمومهـم والحساسية لمشاكلهم ، أى الاحتمال والصبر ، والتحفز للبحث عـن الحقيقـة بلباقة .

(د) معرفة الباحث بالراوى وظروفه .

وهـذه المعرفـة تيسـر للبـاحث إمكانيـة التعـامل مـع الـراوى علـى الصعيديـن الشخصى والعلمى .

(هـ) المعرفة العلمية بموضوع البحث .

فيجب على البـاحث أن يطلـع علـى المصـادر المختلفـة - خاصـة المكتوبـة - المتعلقة بموضوع بحثه ، فالرواية الشفوية لا تعطينا صورة كاملة عن الحدث .

إن معرفة الباحث بخصائص الفترة موضوع الدراسة تمكنه مـن طـرح أسـئلة ذكية ومتعمقة ، وتبعده عن السطحية ، وعن العموميات .

٢ - اختيار الموضوع :

يجب أن يختار مؤرخ التاريخ الشفوى موضوعًا معينًا ، أو أحـد جوانـب حدث معين ، أما مراكز البحث والتوثيق التـى تسـتهدف إلى صناعـة المصـادر والأدلة وتوفيرها للباحثين ، فإنها تقوم بإجراء المقابلات على أساس فترة زمنيـة محددة لتوثيقها .

ولا بد من وضـع إطـار عـام للبحـث ، وصياغـة استبيان أو تحديـد رؤوس موضوعات يرغب الباحث فى تغطيتهـا . وليـس مـن الضـرورى أن تصـاغ أسـئلة ملزمة للباحث ليجيب عنها الـراوى ، فمـن الأفضـل تـرك تحديـد شـكل ومحتـوى المقابلـة للبـاحث والـراوى ، هـذا لا يتعـارض مـع توفـر مجموعـة أسـئلة أو قائمـة موضوعات بأيدى الباحث . فهذا يوفر عليه الكثير من المتـاعب . ولكـن المهـم ألا يقيد الباحث نفسه بأسئلة موضوعة مسبقًا فيكون هدفه المـرور عليهـا واحـدًا بعـد الآخر، بل يجب أن ينظر إليها كدليل أو إطار عام للمقابلة .

أما المراكز التى تعمل على توثيق التاريخ الشفوى وتركز على إجراء مقابلات حرة فإنها بحاجة إلى درجة معينة من العمق إلى جانب الاتساع ، حتى تصبح هذه المادة قابلة للاستخدام كمصدر له قيمة تاريخية . والطريقة لهذا هى وضع الإطار التاريخى للمشروع ، وتحديد نوعية الراوة ، وتقدير أهمية تجاربهم .

٣ – انتقاء الرواة :

إن اختيار عينة جيدة من الرواة مهم جدًا إذ بدونها يسهل التشكيك فى استنتاجات الباحث مهما بدت منطقية .

وممكن هنا مقابلة جميع روايات الأحياء المعاصرين لحدث ما ، واعتبارهم عينة تمثيلية – هذا فى الأحداث التى مات معظم معاصريها ، ولكن هذا صعب فى معظم الأحيان .

ويمكن اختيار عينة من الراوة مع مراعاة الأبعاد الاجتماعية والجغرافية والسياسية .

كذلك يمكن للباحث أن يفيد من الأرشيفات والمصادر المكتوبة حول موضوع بحثه فى اختيار عينة تمثيلية ، وأيضًا من المختصين ، والباحثين الذين لديهم الخبرة والمعرفة .

وعلى الباحث ألا يقصر جهده واهتمامه على الأشخاص المتحمسين للحديث عن تجاربهم ، بل عليه أن يبحث بنفسه عن آخرين عاصروا الحدث .

أما العوامل التى تحدد عدد المقابلات وطولها فأهمها :

(أ) نوعية الرواة .

(ب) سن الرواة .

(جـ) خبرة الرواة .

(د) موضوع البحث .

(هـ) الامكانيات المادية والفنية للباحث .

(و) الظروف السياسية والأمنية .

وعندما يقع الاختيار على الرواة يجب الإسراع فى الاتصال بهم ، بالمراسلة أو التليفون . وفى حالة الاتصال عن طريق المراسلة على الباحث أن يحتفظ بأرشيف جيد للمراسلات والملاحظات .

ويتوقع من الباحث أن يشرح للرواة فى هذه المرحلة أهداف البحث وما يطلبه منهم بشكل واضح .

إن مصداقية الباحث والجهه المشرفة على البحث مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وعلى الباحث أن يقدم نفسه للراوى بطريقة مقبولة .

ولا بد من وجود مشرف على كل مشروع من مشاريع التاريخ الشفوى بمؤهلات وخبرات عالية ، تؤهله لمتابعة عمل الباحثين الميدانيين ، ولوضع خطط العمل والإشراف على تنفيذها ، فالمشكلة الحقيقية فى مشاريع التاريخ الشفوى هى تنظيمها ومتابعتها .

بعد أن تؤخذ موافقة الراوى على إجراء المقابلة يتم الاتفاق معه على موعد مناسب لإجراء المقابلة ، التى يفضل أن تسبقها مقابلة أولية لاختبار معلومات الراوى .

٤ – أدوات التسجيل :

إن باستطاعة مؤرخ التاريخ الشفوى اليوم استخدام آلة تصوير فيديو أو جهاز التسجيل الذى هو أكثر استخداما ، ويعتبر الرفيق الدائم لمؤرخ التاريخ الشفوى .

٥ – المقابلة التمهيدية :

ليس كل من يستجيب لإجراء مقابلة قادرًا على إفادة الباحث ، ولذلك ينصح بإجراء مقابلة تمهيدية قبل التسجيل لإختبار معلومات وقدرات الراوى .

والمقابلة التمهيدية هى المكان المناسب لاكتشاف موضوعية الراوى وقوة ذاكرته ، وهى مهمة حيث أنها تعرف الباحث بالرواى ، وتخلق بينهما نوعًا من التألف والثقة ، وتساعد الراوى فى تعديل أسئلته بحيث تناسب الراوى .

والمقابلة التمهيدية تعرف الراوى أيضًا بأهداف الباحث وتتيح له الفرصة لتنظيم أفكاره كى تناسبها .

وفى هذه المقابلة يوضح الباحث أهداف البحث للراوى ، ويأخذ موافقته على استخدام الرواية بعد أن تسجل .

ويفضل أن يكون هذا اللقاء فى نفس المكان الذى ستجرى فيه المقابلة ، ويذهب الباحث بدون أدوات تسجيل ، ويتجنب الخوض فى التفاصيل ، وفى المواضيع التى يمكن أن تحرج الراوى ، كالمسائل الشخصية أو العائلية ، ويركز اهتمامه لكسب ثقة الراوى وتعاطفه مع أهداف البحث .

يجب على الباحث أن يتذكر دائمًا أن هدفه يختلف عن هدف الراوى، ففى حين يسعى الباحث إلى توثيق الوقائع والأحداث والقضايا ذات المدلول التاريخى بدقة وأمانة ، يميل الرواة للتركيز على الجوانب الشخصية والشعورية ، لأن هدفهم قد يكون التسلية والترفية ، أو لتمجيد صفحاتهم وعائلاتهم أمام التاريخ والناس .

وإذا تبين بعد المقابلة التمهيدية أن لدى الرواى ما يفيد البحث ، فعلى الباحث أن يحدد موعدًا لإجراء المقابلة وتسجيلها ، ويطلب الباحث من الراوى أن يوقع له توكيلا باستخدام المقابلة ، فهذا هو الوقت المناسب له .

العوامل التى تحدد قيمة الرواية :

- أهمية الموضوع أو الحدث أو الفترة موضوع البحث .
- أهمية دور الراوى فى الفترة أو الحدث .
- أهمية المعلومات الواردة فى المقابلة .

فالمادة الشفوية تقسم إلى ثلاثة أنواع :

(أ) حقائق أصلية .

(ب) معلومات مساعدة .

(جـ) أحاسيس ومشاعر .

- نوعية التسجيل .

والجدير بالذكر هنا أن روايات شهود العيان هى أساس التاريخ الشفوى .

٦ – مراعاة الجوانب القانونية والأدبية :

إن ما ينتج عن المقابلة الشفوية من أشرطة مسجلة ونص مكتوب هو إنتاج مشترك للباحث والراوى ، وملكيتها تعود إلى كليهما ، ويأخذ التوكيل القانونى شكلين يختار الباحث أحدهما ، هما :

(أ) تصريح شفوى فى مقدمة الشريط يقول فيه الراوى صراحة ، وبشكل واضح أنه موافق على أن يمنح الباحث جميع حقوق استخدام الرواية ضمن شروط معينة ، إن وجدت هناك شروط .

(ب) توكيل مكتوب موقع من الراوى نفسه ينص على منح حقوق استخدام الرواية للباحث ضمن شروط معينة ، إن كانت هناك شروط .

والتوكيل المكتوب أفضل من التوكيل الشفوى .

ثانيًا : إجراء المقابلة :

المقابلة الشفوية هى أساس التاريخ الشفوى ، ويتوقف نجاح المقابلة على درجة التفاعل بين الراوى والباحث ، ومن المفضل أن يبدأ الباحث استجوابه بأسئلة عامة ثم ينتقل بعد ذلك إلى التخصيص ، وأن يكون منتبهًا متيقظ الذهن ، ويبنى سؤاله على كلام الراوى ، حتى يجعل الراوى يسترسل فى حديثه فى نفس الموضوع الذى جاء من أجله .

وعلى الباحث أن يسجل كل انفعالات الـراوى ، ويفضـل أن يكـون مستعدا لذلك ، فيدونها فى دفتر ملاحظاته الذى يعتبر جزءًا مـن ملحقـات *المقابلة ، وعليـه ، أن يسـأل عـن صـور أو وثـائق تخـص موضـوع البحـث* فيلحقها بالإرشيف كوثائق هامة .

ويجب على الباحث أن يحسن الإصغاء إلى الرواى ، وأن يركـز اهتمامـه عليه ، ويمتنع كلية عن توجيه إجابات الـراوى أو التأثـير عليـه ، بمـا فـى ذلـك الامتناع عن طرح أسئلة بأسلوب الإيحـاء . ويجـب أن يبـذل البـاحث جهـده لإحراز ثقة الراوى وطمأنينته ، فالباحث الناجح هو الذى لا يخلق انطباعًا لدى الراوى بأنه يتوقع استجابات تبدو كأنها أسئلة إتهام له ، أى أن يكون الباحث موضوعيًا فى أسئلته .

وعلى الباحث أن يتحلـى بالصـبر ، ولا يقـاطع الـراوى بأسـئلة جديـدة فيقطع أفكاره .

ويجـب عليـه أن يـترك لـلراوى الحريـة فـى ترتيـب ، وعـرض التفـاصيل ، والقضايا، فإنه ربما يريد أن يقود المقابلة نحـو المواضيـع التـى يعرفهـا ، ويبتعـد عـن المواضيع التى يجهلها ، وهذا فى مصلحة المقابلة . وعليه ألا يصر علـى أى شـئ لا يتفق ورغبة الراوى ، فإذا رفض الراوى الإجابة على سؤال معين أو التحـدث فـى موضوع معين فعليه أن ينتقل إلى سؤال آخر ، أو يسأل السؤال بطريقة أخرى .

يجب أن تكون الأسئلة مفـردة واضحـة ، وقصـيرة ، ولا يقـرأ الأسـئلة مـن قائمة أسئلة معدة سلفًا حسب ترتيب معين لا ينسجم مع مجرى المقابلـة ولا أسـئلة تحتمل إجابات قصيرة فقط .

ويطلب الباحث من الراوى أن يركـز روايتـه علـى مـا رآه فعـلاً ، كمـا أن بإمكانه أن يختبر صـدق الروايـات ودقتهـا بتكـرار الأسـئلة بطـرق مختلفـة ومقابلـة الروايات بمصادر أخرى ، ويطلب من الراوى التعليق عليها .

هل يتم الحديث بلهجة فصيحة أم عامية ؟

إن هذا يعتمد قبل أى شئ آخر على الرواى ، ولكن نقول أن المقابلة الشفوية هى عمل أكاديمى ، وليست مجرد نقاش بين اثنين أو لقاء صحفى ، فإنها بعد تسجيلها تصبح وثيقة تاريخية هامة سيعكف على معالجتها ، وحفظها ، وتترك لهجة الحديث يحددها الراوى وليس الباحث ، أما إذا ظهرت كلمات غير مفهومة فيقوم الباحث بشرحها .

وعند انتهاء المقابلة يشكر الباحث الراوى ، وإذا كان الباحث يعمل من خلال مركز فعلى المركز أن يوجه له رسالة شكر رسمية .

ثالثًا : نسخ المقابلة كتابيًا :

تسجيل المقابلات على أشرطة التسجيل هو حفظ للذاكرة والأحداث من النسيان والتشويه .

وتفريغ المقابلات الشفوية على الورق لا يلغى دور المقابلة المسجلة ، والتى تبقى هى المصدر الأساسى ، وطريقة استخدام الباحثين للمقابلة تحدد درجة ومستوى الدقة التى يطلب من الناسخ التقيد بها .

والنسخة المثالية : هى التى تسجل ما قاله الراوى وتعكس أسلوبه ، وشخصيته بأمانة على أن تكون مقروءة ، ومفهومة أيضًا .

مرحلة النسخ : يدون فيها الناسخ كل ما يسمعه على الشريط بما فى ذلك البدايات غير الموفقة ، والآهات ، والكلمات والجمل غير المكتملة ، وحتى الشتائم، وهو غير مطالب بتصحيح الأخطاء اللغوية حتى وإن بدى الحوار غير مفهوم ، فمراجعة النص وتنقيحه تأتى فى مرحلة لاحقة .

ويبدأ الناسخ بتفريغ المعلومات الأساسية عن المقابلة للتعريف بها كما هو وارد فى الشريط ، وبعد الإطلاع على ملاحظات الباحث الذى أجرى المقابلة ، تسجل المعلومات فى رأس الصفحة الأولى على النحو التالى :

اســـــم الـــــــــراوى :

عمـــــر الـــــــــراوى :

رقـــــم الشـــــــــريط :

مـــــدة الشـــــــــريط :

مـــــكان التســـــــجيل :

تاريـــــخ التســـــــجيل :

اســـــم البـــــــاحث :

الجهة المشـرفة على البحث :

وتنسخ المقابلة على شكل سؤال « س » وجواب « ج » .

وعلى الناسخ ألا ينسى علامات الترقيم التى بدونها يصعب فهم مقاصد الراوى .

وأن يدون أية ملاحظات عن انفعالات الـراوى وتعبيراتـه الحركيـة مستعينًا بدفتر ملاحظات الباحث الذى نفذ المقابلة ، كأن يقـول ضاحكًـا متهكمًـا ، لـوح بيده فى الهواء ... إلخ .

فالناسخ يدون كل ما يسـمعه بـالضبط ، وعندمـا ينتهـى مـن الوجـه الأول للشريط يكتب « نهاية الوجه الأول » ، وفى نهاية الشريط يشير بكلمة « انتهى» ثم يدون اسمه والوقت الذى استغرقه فى نسخ الشريط .

والجدير بالذكر هنا أيضًا أن الناسخ يجب أن يقوم بـترقيم الصفحـات وتـرك حواشى كافية علـى الجـانبين ، واسـتخدام أوراق وأقـلام مـن نوعيـة جيـدة ، وأن يكتب على وجه واحد من الورقة ، وأن يقوم بمراجعة ما كتب بسماع الشـريط ، ومقابلته بما كتب .

رابعًا : مراجعة النسخة المكتوبة وتطويرها :

بعد الانتهاء من نسخ المقابلة يدفع النص للمراجع الذى يسمح له بإدخال تعديلات طفيفة على المقابلة ضمن حدود الحفاظ على أسلوب وشخصية الراوى من خلال النص ، وذلك بهدف توضيح النص ، وجعله مقروءًا ومفهومًا .

الأشياء التى بإمكان المراجع التصرف بها فى النص المكتوب :

١ – البدايات الخاطئة :

وهى كلمات مقطعة مشوشة ربما جاءت غير مقبولة ، أو غير مفهومة فيقوم الباحث بترتيبها ، وإخراجها فى جمل مفهومة بحيث لا تؤثر على النص .

٢ – التعبيرات المكررة بحكم العادة :

مثل كلمة يعنى ، شوف ، كيف ، زى ما تقول ، اسمع ، وللأمانة .

٣ – مقاطعات الراوى للباحث :

مثل هذه المقاطعات تحذف لأنها لا تمت إلى محتوى المقابلة ، وتقلل من سلاسة الحوار .

٤ – الإضافة للنص المكتوب :

لا يجوز إضافة أية كلمة للنص بهدف تفسيره أو شرحه ، وإنما تكون الإضافة بهدف توضيح المعنى فقط ، وبإمكان المعالج توضيح مقاصد الراوى باستخدام علامات الترقيم .

وبإمكانه أيضًا توضيح المعنى بإضافة كلمة أو كلمتين شرط أن توضع بين قوسين مركنين [ ] تمييزًا لها عن حديث الراوى نفسه .

أما بخصوص اللهجة وتهجئة الكلمات فينصح عمومًا بعدم التمسك بالفروق بين اللهجات المحكية ، فإذا قال الراوى « قلتلك » قاصدًا « قلت لك » فتكتب العبارة بشكلها الثانى .

خامسًا : مراجعة الراوى للنص المكتوب :

الباحث غير ملزم بإطلاع الراوى على النص المكتوب لروايتــه ، إلا أن هـذا الأمر له فوائده والتى منها :

أولاً : يطمئن الراوى ، ويريحه ، ويعزز التزامه بجهة البحث .

ثانيًا : يؤكد للباحث أن النسخة المكتوبة تعكس المعنى الذى قصـد إليـه الـراوى ، وتورد الحقائق بالطريقة التى أرادها .

ثالثًا : توفر للباحث فرصة لملأ الفراغات التى تنشأ عن عدم وضوح التسجيل ، أو عدم وضوح معنى أجزاء من الرواية .

ولتحقيق هـذه الأهـداف يطلـب مـن الـراوى قـراءة النـص بتمعـن ، والقيام بما يلى :

١ - تعبئة الفراغات المشار إليها فى النص والناجمة عن عدم وضوح التسجيل .

٢ - تصحيح تهجئة الكلمات وخاصة أسماء الأشخاص والمواقع .

٣ - تصحيح الأخطاء التى يمكن أن يكون الراوى نفسـه قد وقع فيها مثـل تـاريخ أو مكان حدث معين .

٤ - إضافة بعض الكلمات التوضيحية لشرح العبارات والجمل التى قد تكون غـير مفهومة للقارئ خاصة إذا أشار إليها المراجع .

٥ - حذف ما لا يريد الراوى أن يظهر فى النص المكتوب لروايته .

وإذا أراد الرواى أن يدخل بعض التعديـلات علـى النـص فهـذا مـن حقـه ، ولايجوز إرسال النسخة الأصلية ، أو الوحيدة من المقابلة للراوى إذ يفضـل إرسـال صورة عن المقابلة .

وبعد إعادة المقابلة يتوجب على المراجع أن يعيد قراءتهاللتأكد من وضوحها وصلاحيتها للنشر .

سادسًا : الفهرسة والأرشفة :

تعتمد مشاريع التاريخ الشفوى طرقًا مختلفة لفهرسة المقابلات الشفوية ، وليس هناك نظام محدد ومعترف به للمشاريع من هذا النوع . فنظام الفهرسة والأرشفة الأفضل هو الأسهل والأبعد عن التعقيد .

وعند الفهرسة تعامل كل مقابلة كوحدة واحدة قائمة بذاتها ، يعطى لها رقمًا متسلسلاً ، ويحضر لها كرتان أحدهما للراوى والآخر للموضوع ، ويرتب كل منهما فى أرشيف منفصل حسب التسلسل الأبجدى ، ويحتوى كلاً الكرتين على معلومات تشمل :

١ - رقم المقابلة .

٢ - موضوعها .

٣ - مدتها .

٤ - الأحداث الواردة فيها .

٥ - تاريخها .

٦ - طريقة الحصول عليها « شراء ، وتسجيل ، ومبادلة » .

٧ - معلومات عن الراوى « اسمه ، ومهنته ، وسنه ... » .

ويحتوى كل كرت فى العادة على ما بين ٥٠ - ٧٥ كلمة لكل ٣٠ دقيقة تسجيل.

إن طريقة الاحتفاظ بأشرطة التسجيل تختلف عن طريقة الاحتفاظ بالكتب المطبوعة ، وكذلك الحال فى الاستخدام ، ولا بد من أخذ خصوصية أشرطة التسجيل وحساسيتها بعين الاعتبار .

والمقابلات المطبوعة وكذلك أية ملحقات مضافة للأرشيف من مواد مساعدة « كالصور ، والجرائد ، والمذكرات ... إلخ » تعطى نفس رقم تصنيف الشريط .

وبعد فإن للتاريخ الشفوى ميزة كبرى عن التاريخ المدون ، وهى أن مـؤرخ التاريخ الشفوى يقوم بدور فعال فى صناعة مصادره ، ولكن ضمن منهـج دقيـق ، وصعب . ونحن فى هذا الوقت بحاجة ماسة لكتابة فترات من تاريخنا معتمدين على التاريخ الشفوى لتوثيق أحداث هامة مثل تهجير الشعب الفلسطينى من بلاده سـنة ١٩٤٨م ، أو أحداث ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م ، أو حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣م ... إلخ .

فشهادات المعاصرين للحدث لها أهميتها ويجب أن تحظى باهتمام المؤرخين، ويجب أن يتم تسجيلها قبل أن نفقدهم فتضيع أجـزاء مـن الحقـائق التـى تعـبر عـن أحداث ومشاعر وآلام ، ومعاناة ، آمال شعبنا العربى .

هوامش البحث

(١) يحيى ، عادل ، ومحمود إبراهيم ، وتوماس ريكس : التجربة الفلسطينية فى التأريخ الشفوى ، رام الله ، سنة ١٩٩٤م ، ص٣٧ .

(٢) أونج ، والترج : الشفاهية والكتابية ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، ومراجعة د. محمد عصفور ، مجلة عالم المعرفة ، عدد ١٨٢ ، الكويت ، شعبان ١٤١٤هـ / شباط ١٩٩٤م، ص٥٩ .

(٣) يحيى : ص١٨ .

(٤) توش ، جون : المنهج فى دراسة التاريخ ، ترجمة د. ميلاد المقرحى ، جامعة قار يونس ، بنغازى ، ليبيا ، سنة ١٩٩٤م ، ص٣٠٥ .

(٥) كاشف ، د. سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، ط٢ ، مكتبة الخانكى ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦م ، ص١٣ .

(٦) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على ت - ٣٤٦هـ : مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ٩ج ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ط٤ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة سنة ١٩٦٤م ، ج٣ ، ص١٧٥ .

(٧) ابن الأثير ، عز الدين أبى الحسن على أبى الكرم محمد بن عبد الواحد السيبانى ت - ٦٣٠هـ : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، دمشق سنة ١٩٣٨م ، ج٣ ، ص٢٣٣ .

(٨) كاشف : ص٢٤ .

(٩) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ت - ٨٤٥هـ : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت (بدون سنة نشر) ، ج٢ ، ص٣٣٢ .

(١٠) الدورى ، د. عبد العزيز ، وناجى معروف : موجز تاريخ الحضارة العربية ط١ ، بغداد ، سنة ١٩٥٢م ، ص٢٦٠ .

(١١) العلى ، د. صالح أحمد : محاضرات فى تـاريخ العـرب ، ط٢ ، مطبعـة المعـارف بغـداد ، سنة ١٩٥٩م ، ج١ ، ص٢٤٦ - ٢٤٧ .

(١٢) حسن ، د. على إبراهيم : اسـتخدام المصـادر وطـرق البحـث « فـى التـاريخ الإسـلامى العام، وفى التاريخ المصرى الوسيط » ، ط٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القـاهرة ، سـنة ١٩٨٠م ، ص١٠ .

(١٣) أونج : ص٥٥ .

(١٤) توش : ص٣٠٧ .

(١٥) يحيى : ص٣٩ .

(١٦) توش : ص٣٠٦ .

(١٧) يحيى : ص٢٣ .

(١٨) توش : ص٣٢٥ .

(١٩) انظر يحيى : ص٤٥ وما بعدها .